

من التراث الإسلامي الأفريقي كتاب التنبيه للشيخ محمد بلو

د. سلمى عمر السيد عمر
أستاذ مساعد قسم التاريخ – جامعة الخرطوم
هذا البحث ملخص تحقيق كتاب تنبيه الراقد لما يعتور الحج من المفاصد للشيخ محمد بلو بن عثمان بن فودي. وموضوعه فريضة الحج، لذا فهو يحوي العديد من الفتاوى في هذا الشأن، وقد اعتمد الشيخ بلو في كتابه على العديد من فقهاء المالكية على وجه الخصوص مثل الحطاب، ابن الحاج، ابن رشد، ابن فرحون وابن رجب وغيرهم.

ركز الشيخ بلو في كتابه على الاستطاعة وهي من شروط الحج ومن هنا نجده قد عرض فتاوى عديدة في هذا الخصوص مثل فتوى ابن رشد والطرطوسي التي تسقط هذه الفريضة عن أهل الأندلس والمغرب لعدم توفر هذا الشرط ولهذا فهو يتحدث عن الجهاد وأفضليته إذا وقع على الحج، ويسوق في هذا الشأن العديد من الأحاديث التي تبين أفضلية الجهاد.

تاريخ الإسلام في إفريقيا الغربية قديم، وقد دخل على الأرجح في بداياته إلى حوض نهر السنغال. وحسب ما ورد في البكري فإن أول من أسلم في تلك المنطقة ملوك مملكة تکرور⁽¹⁾. انتشر الإسلام وسط قبائل الصحراء الغربية وهم قبائل صنهاجة الذين قامت فيهم دولة المرابطين وكان ذلك في منتصف القرن الحادي عشر. وأول من أسلم من ملوك البرنو في ذلك الوقت حسب ما تفيدنا مصادر مملكتهم هو أمي بن عبد الجليل، وحسب الوثائق من تلك المنطقة فإن هذا الملك حج وتبعه الكثيرون من سلالته⁽²⁾. أما إقليم الهوسا فمن المرجح أن الإسلام قد جاءه من الغرب وكان الدعاة له هم فصيل الونقارا من قبائل الماندينقو التي اشتهرت بالتجارة، ويرجح المؤرخون أن الإسلام قد دخل هذه المنطقة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حسب ما أوردته مخطوطة تاريخ أرياب كنو⁽³⁾.

في القرن التاسع عشر انتظمت غرب إفريقيا عدة حركات عرفت بحركات الجهاد الإسلامي. انفقت هذه الحركات جميعها بأن قوادها كانوا من العلماء. وأول هذه الحركات قامت في بلاد الهوسا-شمال نيجيريا الحالية- وهي الحركة التي قادها الشيخ عثمان بن فودي. تبع ذلك حركة الشيخ أحمد لوبو في إقليم "ماسنا" جهة الغرب، وفي سنة 1851م اكتسحت جحافل مجاهدي الحاج عمر بن سعيد الفوتي المناطق الواقعة غرب نهر النيجر وتأسست أثر ذلك الدولة التي عرفت بإمبراطورية التكرور أو دولة التجانيين⁽⁴⁾.

جهاد الشيخ عثمان وقيام دولة سكتو:

ولد الشيخ عثمان بن فودي بقرية "ماراتا" إحدى قرى "قوبير" ببلاد الهوسا سنة 1754م وتلقى كل تعليمه ببلاد الهوسا على الشيوخ المشهورين، وتأثر كثيراً بتلمذته على الشيخ جبريل بن عمر وكتابات مشايخ القادرية من بيت الكنتي، وقد جمع الإجازات التي حصل عليها في مؤلفين هما "أسانيد الضعيف" و"أسانيد الفقير"⁽⁵⁾. انحصر نشاط الشيخ عثمان في الوعظ والتدريس ليتخلى الناس عن البدع والأشياء المخالفة للسنة وجمع حوله عدداً كبيراً من الطلاب وعرف أتباعه باسم "الجماعة"، وكان لهم زي مميز يتمثل في لبس العمامة للرجال والخمار للنساء. أزعج هذا النشاط ملوك الهوسا وملوك البرنو فكتب الأخيرون إلى ملوك مملكة "قوبير" يحذرونهم مما يعتقدون أنه شرارة الفتنة، لهذا فإننا نجد أن السلطان "نفاتا" ما إن تولى الحكم حتى أصدر إعلانه الشهير فأمر بأن يرتد كل من أسلم على يد الشيخ عثمان ومنع أي شخص -ما عدا الشيخ- من الوعظ والتدريس ومنع كذلك لبس العمامة والخمار، وهي الصفة المميزة لأتباع الشيخ عثمان⁽⁶⁾. استمر الحال كذلك حتى كانت المنازلة الحقيقية بين الشيخ عثمان وملوك "قوبير" التي بدأت عندما تولى السلطان (ينفا) الحكم وقام بمجابهة قرية "قمبانا" وكان يعدُّ لها أحد فقهاء الهوسا ويدعى معلم عبد السلام، وقتل الكثيرين واستولى على أموالهم ومتاعهم وعاد بالكثير من الأسرى المسلمين. اتخذ أنصار الشيخ هذه الحادثة ذريعة لبداية الحرب التي انتهت بانتصار أتباع الشيخ عثمان بقيادة ابنه عبد الله على جيش "قوبير" في سنة 1804م. وقد اضطرب سلطان "قوبير" لاشتداد عضد الشيخ عثمان فأمره بإخلاء قريته "دقل"

والرحيل بعائلته فقط، إلا أن الشيخ لم ينصع لذلك وأمر كل جماعته بالرحيل فهاجروا جنوباً إلى قرية "قدو" وسموا تلك هجرة تيمناً بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم⁽⁷⁾، وهي في الواقع تعني شق عصا الطاعة على السلطة القائمة، فالهجرة في العرف الإسلامي هي المرحلة التي يعقبها إعلان الجهاد على ديار الكفر.

لقد تبع جهاد الشيخ عثمان حوار كثير يدور حول تفسير دواعيه الحقيقية، فبعض المؤرخين اعتبره انتصاراً لقبائل الفلاني على ارسنقراطية الهوسا "أفونو" التي كانت تحكم المنطقة، واعتبره البعض ثورة الريف على المدينة، إلا أننا لا نستطيع في كل الأحوال أن ننفي عنصر التجديد الديني في ذلك الجهاد.

كان من الطبيعي أن يتصدى البعض من معاصري الشيخ إلى تلك الحركة وشرعيتها في الدين وهل يحق لها أن تسمي ما تقوم به جهاداً، قاد هذا النقد أمير برنو الشيخ محمد الأمين الكانمي الذي اتهم قادة الفلاني بأنهم طلاب دنيا، وأن حريهم لم تكن جهاداً لأن الجهاد يكون على الكفار أما أهل هوسا وبرنو فكانوا مسلمين. أما قادة الجهاد أنفسهم فقد أيقنوا أنهم بجهادهم قد أرسوا قواعد دولة الإسلام⁽⁸⁾.

تَسَمَّى الشيخ عثمان وكل من ولي سكتو من بعده بأمير المؤمنين، ثم أنهم سعوا سعياً حثيثاً ليكسبوا دولتهم الصفة الإسلامية على النمط الكلاسيكي وافتخروا بذلك، فعلى سبيل المثال كتب الشيخ عثمان في "تجم الإخوان" أن دولتهم تسير على هَدْيِ الرسول صلى الله عليه وسلم في أمورها الدينية والدينيوية، أما الأمور الدنيوية فقد كان على رأسها أمير المؤمنين وهو الذي يعين أصحاب الوظائف مثل المحتسب والقاضي والخازن... إلخ.

اهتم قادة الحركة في بداية أمرهم، على الأقل، بالحج، وهذا الاهتمام من سمات الدويلات الإسلامية، وهناك إشارة إلى منصب أمير الحج في خطاب وجهه محمد بلو لأهل الحرمين في رسالة عنوانها "رسالة إلى أهل الحرمين الشريفين وإلى أهل المشرق"⁽⁹⁾. أما استمرارية هذا المنصب فلم تسعفنا المصادر بها. ويبدو كما يتضح من محتويات كتاب "التنبيه" أن الدولة لم تقم بجهود في ذلك المضمار، بسبب

تمكن الحجاج من مرافقة قوافل التجار وهناك ما يورده الشيخ محمد بلو بن عثمان بن فودي كأسباب فقهية وهذا ما نحن بصددده.

ب وفاة الشيخ عثمان في سنة 1817م كانت كل بلاد الهوسا قد دانت لسلطانه وتأسست بذلك دولة سكتو أو (دولة الفلانيين) فأصبحت بلاد الهوسا ولأول مرة تخضع لسلطة سياسية موحدة. وقبيل وفاته تقسمت الدولة إلى شقين فكان يحكمها في الشرق ابنه محمد بلو الذي اتخذ من سكتو عاصمة له، وفي الغرب كان يحكم شقيقه الشيخ عبد الله بن فودي من مدينة "قواندو". وبعد وفاة الشيخ عثمان صار ابنه محمد بلو أميراً للمؤمنين سنة 1817م وأصبحت سكتو عاصمة الدولة الوليدة وبها عرفت واشتهرت.

الكتبة اب الفلانيون:

في أوائل الستينيات من هذا القرن أبدى الباحثون اهتماماً خاصاً بالمصادر الوطنية لتاريخ القارة واتضح أن هناك رصيذاً ضخماً من التراث العربي في إفريقيا الغربية، والتقت الباحثون بوجه خاص إلى ذخيرة من المخطوطات العربية تدل على غزارة ما كتبه علماء الفلاني وعلى رأسهم الشيخ عثمان وأخوه عبد الله وابنه محمد بلو، فقد حصل الباحثون على ما يقارب الثلاثمائة من مؤلفاتهم ، منها ما نشر في العالم الإسلامي مثل "إحياء السنة وإخماد البدعة" و"بيان وجوب الهجرة على العباد" للشيخ عثمان و"ضياء التأويل" و"تزيين الورقات" للشيخ عبد الله و"إنفاق الميسور" للشيخ محمد بلو (10).

أما على محتوى كتابات الفلاني فقد لوحظ أنها في الغالب ربما كانت الدروس في العبادات والفقهاء التي كانوا يلقونها على تلاميذهم، كذلك فقد لوحظ قلة الاهتمام بدراسات التاريخ فلا نجد في مجال التاريخ إلا كتاب "إنفاق الميسور" للشيخ محمد بلو، ومن المرجح أن هذا الأثر يعود إلى قوة ارتباط المنطقة بالمغرب الإسلامي إذ كانوا في قولهم يعتنون بالدراية دون الرواية.

ومهما يكن فإنه مما لا شك فيه أن مجموع كتابات الفلاني له دليل قوي على سعة اطلاعهم وتمكنهم من العلوم الإسلامية، وهي أيضاً دليل على قدم الثقافة الإسلامية وعمقها بالمنطقة.

وصف المخطوطات:

كتاب تئبيه الراقد لما يعثور الحج من المفاصد" هو أحد كتب الشيخ محمد بلو العديدة وموضوعه فريضة الحج. وقد اعتمدت في التحقيق على أربع نسخ من الكتاب هي (أ)، (ب)، (ج) و(د)، والمخطوطة (أ) هي الرئيسية. يقع الكتاب في مقدمة وثلاثة عشر فصلاً، وتشذ عن ذلك المخطوطة "د" حيث تنقص المقدمة والخاتمة. ومن بين المخطوطات الأربع فإن المخطوطة "ب" فقط التي تحمل إشارة إلى تاريخ الكتاب حيث يرد النص الآتي: "أنجز هذا التأليف ضحوة يوم الجمعة في شهر الله صفر عشرين منه من هجرة النبي" ولكن لم يرد ذكر للسنة. وبمراجعة قوائم التاريخ وجدنا أن التاريخ المذكور يقع في ثلاثة احتمالات هي كالاتي:

1- الجمعة	20 صفر 1237هـ	نوفمبر 1821م
2- الجمعة	20 صفر 1245هـ	أغسطس 1829م
3- الجمعة	20 صفر 1253هـ	مايو 1837م.

وفي اعتقادنا أن التاريخ الثاني هو الأقرب للصحة لأن الأول هو بداية إمارة المؤلف والثالث هو عام وفاته. ومما يرجح التاريخ الثاني أنه وفي أثناء فترة حكمه أميراً للمؤمنين كان عليه أن يبدي رأيه في سياسة الدولة نحو الحج خاصة وأنه من المعروف أن كل دولة إسلامية تبدي اهتماماً خاصاً بذلك النشاط الديني وبعضها يشرف إشرافاً كاملاً على إعداد قوافل الحج. كل النسخ مكتوبة بالخط المغربي ونلاحظ اعتماد المؤلف على عدد كبير من الفقهاء جلهم من المالكية.

النسخة أ Kaduna, A/AR, 23.3

تتكون هذه النسخة من 55 صفحة ويبلغ طول الصفحة 23.5 سم وعرضها 18 سم والجزء المكتوب طوله 16.5 سم وعرضه 13.5 سم وعدد السطور في كل صفحة 16 سطراً عدا بعض الصفحات من 18 - 20 حيث يبلغ عدد أسطرها 17 سطراً.

تبدأ هذه النسخة كالاتي "بسم الله الرحمن الرحيم وصل الله على النبي الكريم هذا الكتاب تئبيه الراقد على ما يعثور الحج من المفاصد" الشيخ أمير المؤمنين محمد

بل بن الشيخ أمير المؤمنين عثمان بن فودي رحمهما الله تعالى وأفاض علينا من بركاتهما".

يمكن القول إن هذه النسخة هي الأكمل إذ لا تشوبها الأخطاء والتصحيحات التي تظهر في النسخ الأخرى كما أنها الأصح في الكتابة. اهتم الناسخ بإضافة ما قد سقط في الكتابة في الهوامش كما في صفحات 16، 17، 37. وتنتهي هذه النسخة بذكر اسم الناسخ فقط وهو عثمان بن محمد دون الإشارة إلى تاريخ كتابة النص.

النسخة ب Kaduna, DIAR 12/11

جاءت هذه النسخة دون ذكر عنوان الكتاب أو اسم المؤلف ولكنها تتفرد بأنها النسخة الوحيدة التي عليها تاريخ كما ذكرنا سابقاً .

تتألف هذه النسخة من 53 صفحة يبلغ طول الصفحة 18.3 سم وعرضها 12.5 سم والحيز المكتوب طوله 14.5 سم وعرضه 11.5 سم وعدد الأسطر بكل صفحة 16 سطرًا عدا الصفحات 7 و 8 و 10 فعدد سطورها 15، و صفحات 21 و 23 يبلغ عدد أسطرها 17 سطرًا .

الملاحظ أن هذه النسخة بها سقط كثير وتكتب التاء المفتوحة مربوطة مثل "القوت" فإنها تكتب "القوة" كذلك نجد زيادة ألف لأسماء الإشارة مثل "ذاك" و"كذلك". ويلاحظ في هذه النسخة الاهتمام بالتنوين في كثير من المواضع خاصة أبيات الشعر والآيات القرآنية.

النسخة ج Kaduna, DIAR !/11

هذه النسخة مؤلفة من 38 صفحة. طول الصفحة 23 سم وعرضها 19 سم والجزء المكتوب طوله 14.3 سم وعرضه 10.5 سم وتحتوي كل صفحة على 16 سطرًا .

تبدأ هذه النسخة كالاتي: هذا كتاب تنبيه الراقد فيما يعتور الحاج من المفسد قال الفقير إلى مولاه محمد بل بن عثمان بن محمد غفر الله للجميع آمين.

تبدو هذه النسخة أقل دقة وضبطاً وبها الكثير من الأخطاء لعل أكبرها أن الناسخ أهمل أربع صفحات كاملة مثبتة في المخطوط المحقق لذا لم نشر إليها في الهوامش.

يلاحظ أن حرفي الطاء والظاء يكتبان هكذا "الاستعاعة" بدلاً عن "الاستطاعة" واللفق بدلاً عن "اللفظ" كما أن أسماء الأعلام تكتب باللون الأحمر دائماً وكذلك كلمة "فصل" و"اللهم" و"صلى الله على سيدنا محمد" وهذه النسخة مثل النسخة "ب" في زيادة الألف لأسماء الإشارة "ذلك" "كذلك".

تنتهي هذه النسخة بذكر اسم الناسخ كما ورد في المخطوط بالنص الآتي:
"اسم من كتب هذا الكتاب محمد الملقب ثالث مسكاً غسوا نسباً بكور".

النسخة د Kaduna AIAR, 23/3

تتكون من 43 صفحة وتبدأ بالفصل الأول مباشرة وليست لها مقدمة كما هو متبع في سائر النسخ، كما أن الصفحات الأخيرة التي تشتمل على خاتمة الكتاب غير موجودة.

طول الصفحة 23 سم وعرضها 19 سم والحيز المكتوب طوله 19.2 سم وعرضه 11.5 سم وعدد الأسطر في كل صفحة 16 سطراً.

هذه النسخة تشبه إلى حد كبير النسخة "ب" من حيث الاهتمام بالتتوين في بعض الحالات وكذلك السقط في بعض الصفحات، ويلاحظ فيها كتابة كلمات بلا معنى مما يرجح منه خطأ الناسخ مثل كلمة "يسومه" بدلاً عن "بسبب" وكلمة "الزمري" بدلاً عن "الزهري" وعند نهاية الآيات القرآنية يضع علامة كهذه * * وكما ذكرنا فإن هذه النسخة تنتهي دون خاتمة ولذلك فإن اسم الناسخ وتاريخ الكتابة غير معروفين.

بشكل عام يمكن القول إن كتاب التتبيه عبارة عن تجميع لمعلومات مختلفة من عدة كتب عن فريضة الحج دون الإشارة إلى مصادر النقل عنها. فمثلاً نجد أن الشيخ بلو اعتمد على ابن الحاج كثيراً وقد استوقفني على سبيل المثال استعماله كلمة "يعتور" في عنوان الكتاب وهي يلمت من الكلمات السائرة. وقد استعمل ابن

الحاج نفس الكلمة عنواناً لأحد فصول "المدخل" وهو: "في ذكر بعض ما يعثور الحاج في حجه مما يتعين التحذير منه"⁽¹¹⁾.

كذلك اعتمد المؤلف على الخطاب* كثيراً إذ نجد أن معظم فقرات الكتاب منقولة عنه وفي أحيان كثيرة لا يذكر المؤلف ذلك⁽¹²⁾.

دوافع تأليف الكتاب:

يبدو بعد دراسة المخطوطات الأربع وإثبات مصادرها أن الأسباب التي دفعت الشيخ بلو لتأليف هذا الكتاب - وبجانب أشياء قد لا تبدو معروفة - أن هناك ثلاثة دوافع، الأول: موقف المؤلف الشخصي والثاني: ظروف بلاده المادية مما يفرض إعادة النظر في شرط الاستطاعة - والثالث: ما تداوله العامة عن ضرورة الهجرة إلى الشرق في زمن ظهور المهدي المنتظر.

أولاً : الموقف الشخصي للمؤلف:

قد يكون من المعقول أن نفترض أن الشيخ محمد بلو قد كتب هذا الكتاب ليعتذر عن موقفه الشخصي لعدم تمكنه من أداء فريضة الحج - فالحجة في الكتاب ترمي إلى إبراز أهمية الجهاد وأفضليته إذا تعارض مع الحج، حيث يورد العديد من الأدلة على ذلك منها رواية عن ابن وهب* إنَّ تطوع الجهاد أفضل من تطوع الحج"⁽¹³⁾ كذلك يذكر فتوى ابن رشد* في النص الآتي "

"ما جوابك رضي الله عنك فيمن لم يحج من أهل الأندلس في وقتنا هذا هل الحج أفضل أم الجهاد؟ وكيف إن كان قد حج الفريضة؟ فأجاب: فرض الحج ساقط عن أهل الأندلس لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطاً في الوجوب، لأن الاستطاعة القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال وذلك معدوم في هذا الزمان وإذ سقط فرض الحج لهذه العلة صار نفلًا مكروهاً فإنه مما ذكرناه أن الجهاد الذي لا تحصى فضائله في القرآن والسنة المتواترة والآثار أفضل منه"⁽¹⁴⁾.

ثم يشير المؤلف إلى قول الخطاب: "الحاصل أن من لم توجد في حقه استطاعة فاشتغاله بالجهاد أولى وخروجه للحج مكروه بل ممنوع"⁽¹⁵⁾.

يذكر الشيخ محمد بلو العديد من الأحاديث التي تبرز أهمية الجهاد، منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور"⁽¹⁶⁾. ومن حججه أيضاً ما روي عن آدم بن علي قال: "سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول: لسفرة في سبيل الله أفضل من خمسين حجة"⁽¹⁷⁾.

فالشيخ محمد بلو أصبح أميراً للمؤمنين في سكتو في عام 1817م وحتى وفاته عام 1837م وهو بهذه الصفة منوط به حماية الدولة الوليدة، وفي هذا المعنى يكون المؤلف أكثر وضوحاً حين يشير إلى قول الخطاب:

"السلطان الذي يخاف أنه متى حج يختل أمر الرعية ويفسد نظامهم من خوف عدو الدين أو المفسدين من المسلمين ويغلب على الظن وقوع ذلك فالظاهر أنه غير مستطيع"⁽¹⁸⁾.

ثانياً : شرط الاستطاعة:

كما سبق أن أشرنا فإن بعد المسافة كان حاجزاً أساسياً أمام حجاج التكاير، وقد شاعت في المنطقة مفاهيم كثيرة تقف أمام المسافرين إلى الحج، ولعل أشهرها ما اشتهر بين علماء المغرب وهي فتوى الوليد بن رشد بسقوط الحج عن أهل الأندلس، وفتوى الطرطوشي* بأنه حرام على أهل المغرب⁽¹⁹⁾، فلا غرابة إذن أن نجد هذا المفهوم يتكرر في كتاب "التنبيه" رغم أن الكاتب لم يلتزم به مطلقاً.

والجدير بالذكر أن الكاتب في هذا الأمر لا يكتفي بالأقويل النظرية وإنما يعدد حالات كثيرة توضح الصعوبة والمشقة القصوى أمام الحاج. فعلى سبيل المثال يقول:

"وفي مدخل ابن طلحة* السبيل السابلة اسم لا يكاد يوجد له مسمى فلقد دخلت الطريق من الأندلس إلى إشبيلية ثم إلى بجاية

وعبرت الزقاق وتخيلت وجود السبيل ثم خرجت إلى المهدية فلقيت
في بلاد المغرب ما اعتقدت منه أن الحج ساقط عن أهل المغرب
بل حرام⁽²⁰⁾.

وذهب أيضاً إلى أن بعض الحجاج قد يقومون بأفعال غير لائقة بمن يقصد
أداء الفريضة وفي ذلك يقول:

"الجاهل المسكين يتداين ويحتال ويطلب من الناس بسبب الحج
حتى أن بعضهم ليطلب من الظلمة المتسلطين على المسلمين
الذين يتعين هجرانهم فيكون ذلك سبباً لزيادة طغيانهم لكونهم يرون
بعض من يعتقدونه ويظنون به خيراً على أبوابهم ويعاملهم بهذه
المعاملة ويطلب من فضلات أوساخهم من دنياهم القدرة المحرمة
ويغلب على بعضهم الجهل فتسول له نفسه أو يغره غيره بأنه على
طاعة وخير وهو في العكس نعوذ بالله من الخذلان... ويخرج
بغير زاد ولا مر كوب فتطراً عليه أمور عديدة كان عنها في غنى
منها عدم القدرة على أداء الصلاة فهو متعد في ذلك ومنها عدم
القوت والوقوع في المشقة والتعب وتكليف الناس القيام بقوته
وسقيه وربما آل أمره إلى الموت وهو الغالب فتجدهم في أثناء
الطريق صرعى ميتين بعد أن خالفوا أمر الله تعالى في حق
أنفسهم وأوقعوا إخوانهم المسلمين ممن علم بحالهم من أهل الركب
في إثمهم وكذلك يأتهم كل من أعانهم بشيء لا يكفيهم في أول
أمرهم"⁽²¹⁾.

في اعتقادنا أن الشيخ محمد بلو لم يكن ليترك الأمر فيما يخص الاستطاعة
لأداء الحج دون أن يذكر ما يمكن أن يقوم مقام الحج من عبادات وقد خصص
الفصلين الثاني عشر والثالث عشر لسرد مثل تلك الأفعال التي يمكن تلخيصها في
الصلاة وشهود الجمعة وبر الوالدين والخروج في الغزو وجهاد النفوس وصيام يوم
عرفة وحفظ الجوارح عن المحرمات والإكثار من شهادة التوحيد في يوم عرفة ثم اتبع
الشيخ بلو بالحديث عن المجاورة في خاتمة الكتاب:

"فالمجاورة العمل بسنته عليه الصلاة والسلام حيث كان المرء من الأرض أفضل من المجاورة بالأشباح ومن كتاب "القوت" * قال بعض السلف وكم من رجل بأرض خراسان أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به" وكان بعضهم يقول "تكون في بلدك وأنت مشتاق متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بمقامك أو قلبك متعلق إلى بلد غيره" وزيارته صلى الله عليه وسلم والمجاورة معه باتباع أمره واجتتاب نواهيه في أي موضع كان هي المجاورة"⁽²²⁾.

ثالثاً : مفهوم الهجرة:

لكن ربما ارتبطت فكرة عدم سفر الخلفاء إلى الحج بمفهوم كان سائداً في ذلك الوقت من أن هجرة أمير المؤمنين إلى الشرق تستلزم هجرة الجماعة بأسرها لملاقاة المهدي، إذ أن ظهوره هو إيدان بقيام الساعة، هذا المفهوم يستند إلى ما ورد في كتابات الشيخ عثمان إذ أنه رد على الذين اعتقدوا أنه هو المهدي المنتظر بالنفي إلا أنه تنبأ بظهور المهدي في الشرق⁽²⁴⁾ هذه الهجرة الجماعية حددت طريقها العالمية مريم بنت الشيخ حيث سارت بها من بلاد الهوسا شرقاً حتى النيل.

وفي الروايات الشفهية من منطقة سكتو أصبح الاعتقاد الشائع أن سبب إحجام خلفاء سكتو عن الحج كان سببه خوفهم من أن حركتهم نحو الشرق قد تعني عند العامة الإذن بتلك الهجرة الكبرى. وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً عند ظهور محمد أحمد المهدي في السودان وقد استغله المهدي حين خاطب خلفاء سكتو طالباً منهم الهجرة إليه في النيل، إلا أن الأخيرين لم يستجيبوا لهذه الدعوة وإن لقيت أذناً صاغية من أحد أحفاد الشيخ وهو حياتو بن سعيد الذي أصبح مناصراً للمهدي وطالب بالهجرة إلا أن رابع فضل الله كان عائناً لمحاولة حياتو للنزوح بالجماعة.

مرة أخرى برزت إلى السطح فكرة الهجرة عندما استولت قوات اللورد لوقارد على سكتو في مارس 1903م فدعا أمير المؤمنين آنذاك (الطاهر الأول) إلى الهجرة

إلى الشرق لأن بلاد الهوسا أصبحت دار حرب باستيلاء الكفار عليها. لكنه قتل في معركة "برمي" الشهيرة في يوليو 1903م.

مهما يكن من أمر فإن هذا الاعتقاد يبدو أنه كان سائداً حتى أن بعض الروايات تذكر أن أول من حج من عائلة الشيخ عثمان كان السير أحمدو بلو سردونا سكتو وذلك في عام 1965م. وتقول الروايات إنه قصد أن يصحب معه إلى الحج أعداداً غفيرة حتى يلغي عن أذهان العامة هذا المفهوم. وحقيقة إنه في ذلك التاريخ لم يعد الحج عسيراً إلا من حيث الإمكانيات المادية.

تقييم عام لكتاب التنبيه:

ذكرنا من قبل أن كتاب "التنبيه" يتميز من بين كتب الشيخ محمد بلو وكتب الفلانيين عامة بأنه يتناول موضوعاً محدداً وهو بهذا يخالف النمط الذي اتبعه علماء الفلاني. كما أنه دليل على سعة اطلاع المؤلف وتعمقه في كتب الفقه المالكي، فكيفيَّيمُ كتاب "التنبيه" وأثره في موضوعه؟- أي موضوع الحج.

سبق أن أشرنا إلى أن خلافة سكتو قد عينت حسب ما تسعفنا المصادر حتى الآن أميراً للحج، وكان ذلك في سنة 1812م أي في السنوات الأولى التي تلت نجاح الجهاد، وربما كان مصدر هذا التعيين الحماسة لإثبات صفة الإسلامية للدولة الوليدة إذ أننا لا نجد إشارة لمثل هذا التعيين في المصادر المعروفة حتى الآن، وكما ذكرنا فإنه لم يعرف عن دولة سكتو أنها نظمت قافلة حج كما هو معروف في بعض الدول الإسلامية وربما لم تكن هناك حاجة لذلك لأن الطرق التجارية الصحراوية كانت المسلك الطبيعي لمن ينوي الحج من التجار أو غيرهم.

الجديد في كتاب "التنبيه" أنه أشار ولو بطريقة غير مباشرة إلى أنه كانت هنالك صعوبات حقيقية في الطريق مما جعل المؤلف يناقش الآراء التي وردت في شرط الاستطاعة بإسهاب كبير. وقد ذكرنا آنفاً بعض ما اعتقدنا أنها الأسباب التي دعت المؤلف لوضع الكتاب وأهمها في تقديرنا هو موقف الشيخ محمد بلو الشخصي، وعليه فمن الضروري معرفة ما إذا كان لهذا الكتاب أثر ما في حركة الحجيج في سكتو وفي هذا المجال يمكن القول إنه لا يمكن التقليل من حقيقة أن المؤلف كان رأس دولة سكتو هذا لا بد أن يجعل لهذا الكتاب قيمة تزيد على قيمته

الحقيقية، لذلك فيمكن أن نقدر أن الكثير من مسلمي المنطقة ربما وجدوا فيه عزاءً لعدم تمكنهم من أداء الفريضة، خاصة وأن الحج والحياسة على لقب الحاج أصبح له وبمرور الزمن وقع اجتماعي عظيم.

فحجة الكتاب في مجملها تعيد إلى الأذهان ما تواتر عن علماء الأندلس والمغرب وكان شائعاً بين الناس من أن شرط الاستطاعة لا يكتمل في هذه الأماكن القاصية وبالتالي أفتوا بسقوط الحج فإذا كان هذا الرأي شائعاً بين مسلمي المنطقة فإن كتاب الشيخ محمد بلو قد أعاده إلى الأذهان مرة أخرى وربما جعل منه عند العامة على وجه الخصوص ما يشبه فتوى متكاملة.

أما التأثير الذي تركه عدم أداء السلطان محمد بلو لفريضة الحج فهو أكبر من تأثير الكتاب برغم نصوصه الكثيرة وحججه المتعددة التي ساقها، كما أن أحداً من أبناء الشيخ عثمان وأحفاده الذين تعاقبوا على خلافة سكتو لم يحج، ففي حالة الشيخ عثمان تورد المصادر أن والده منعه من السفر مع الشيخ جبريل بن عمر في حجته الأولى لأن الشيخ عثمان كان صغير السن⁽²³⁾ وفي حالة السلطان محمد بلو فقد أوردنا ما ذكره المؤلف كأسباب مانعة من الحج.

كما ذكرنا فإن جل كتابات الفلاني كانت تشرح للطلاب أركان العبادات كالصلاة والصوم والحج... إلخ، إلا أن الشيخ محمد بلو في كتاب "التنبيه" قد خالف هذه القاعدة بشكل يكسب كتاباته شيئاً كبيراً من الأصالة، ذلك أنه هذه المرة لم يقتصر على شرح أركان الحج ومناسكه وإنما تحدث في الكتاب أولاً من حيث النظرية وموقع المنطقة لبعدها وكيف يؤثر ذلك على شرط الاستطاعة في أداء الحج، وثانياً لأن كتابه تضمن إشارات مفيدة عن الحالة الاجتماعية التي كانت سائدة ولا بد في رأيه أن يأخذها طالب الحج في الاعتبار.

المصادر والمراجع

- (1) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، المسالك والممالك، باريس، 1965م، ص 172-174.
- (2) انظر ديوان ملوك البرنو
Palmer, H.R., The Bornu, Sahara and the Sudan, London, 1936,
pp. 89-95
- (3) Umar Al-Naqar, The Pilgrimage Tradition in West Africa, Khartoum
University Press, Khartoum, 1972, pp. 10-13.
- (4) Murry Last, The Skoto Caliphate, London, 1968, p.3
- (5) M. Hiskett, The Sword of Truth, Oxford Univ. Press, London, 1973,
pp. 71-73
- (6) لمحتويات هذين المؤلفين أنظر:
Umar Al-Naqar, "The Asanid of Shehu Dan Fodio How far are they a
contribution to his biography" Fontes Historie Africane, No. 940,
1984.
M. Hiskett, op.cit, 15 (7)
Ibid, p.15 (8)
- (9) انظر الرسائل المتبادلة بين الشيخ الكانمي وأمراء سكوتو في: محمد بلو بن
عثمان بن فودي، انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي،
مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996م، ص 229-286.
- (10) Umar Al-Naqar, The Pilgrimage Tradition, p. 54
- (11) انظر قائمة المؤلفات في: Murry Last, op.cit.
* ابن الحاج:
هو أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفارسي المالكي المعروف بابن الحاج
أحد أصحاب ابن أبي جمرة، من مؤلفاته. "مدخل الشرع الشريف على المذاهب
الأربعة" الذي اشتهر "بالمدخل" توفي بمصر سنة 737هـ/1239م.

انظر: برهقن الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمرى، الديقاج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، 1351هـ، ص 327، 328.

(12) ابن الحاج، المدخل، ج 4، مطبعة بولاق، القاهرة، 1380هـ-1960م، ص 213.

* الخطاب:

هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعينى المغربى أبو عبد الله المعروف بالخطاب. من علماء الصوفية له من الكتب "مواهب الجليل لشرح مختصر خليل" و"هداية السالك المحتاج" وغيرها. ولد بمكة سنة 902هـ/1427م وتوفى بطرابلس الغرب سنة 954هـ/1547م.

انظر: مصطفى بن عبد الله القسطنطينى الرومى الحنفى المعروف بحاجى خليفة، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، 1982م، ج6، ص 13.

(13) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسى المغربى المعروف بالخطاب، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، طرابلس، ليبيا، ج2، ص 517. * ابن وهب:

هو أبو محمد عبد الله بن وهب المصرى الفهرى.

قضى فى صحبة الإمام مالك عشرين سنة. وقال عنه الإمام مالك "عبد الله بن وهب إمام". ولد بمصر سنة 124هـ-741م وتوفى سنة 197هـ-814م.

انظر: ابن فرحون، ص 163-165.

(14) الخطاب، المصدر السابق، ج2، ص 535-536.

* ابن رشد:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القاضى أبو الوليد.

كان قاضى قرطبة. اشتهر بابن رشد الحفيد. له من الكتب "البيان والتحصيل" و"منهاج الأدلة فى علم الأصول" وغيرها. ولد بقرطبة سنة 520هـ/1126م.

وتوفى بمراكش سنة 595هـ/1198م.

انظر: حاجي خليفة، ج 6، ص 85.

(15) أبو الوليد ابن رشد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق د. محمد صبحي، ج3، 1404هـ/1984م، بيروت - لبنان، ص 75.

(16) الخطاب، المصدر السابق، ج 2، ص 537.

(17) صحيح البخاري، ج4، ص 124.

(18) صحيح مسلم، ج4، ص 95.

(19) الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1342هـ/1924م، ص 24.
* الطرطوشي:

هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي المعروف بابن أبي رندقة، ونسبته إلى طرطوشة بشرق الأندلس. من مؤلفاته "سراج الملوك" و"الحوادث والبدع" وغيرها. ولد سنة 451هـ/1059م وتوفي بالإسكندرية سنة 520هـ/1126م.
انظر: ابن فرحون، ص 276، 278.

(20) الخطاب، المصدر السابق، ج2، ص 497.

* ابن طلحة:

هو عبد الله بن طلحة بن محمد بن عبد الله اليابري أبو بكر. له معرفة بالأصول والفقه والنحو من أهم كتبه "المدخل" الذي اشتهر "بمدخل ابن طلحة" كما له مؤلفات أخرى في الفقه والأصول.
انظر: محمد بن محمد بن خلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 132.

(21) عبد الله بن طلحة بن محمد بن عبد الله اليابري، المدخل، مطبعة مصطفى

البابي الحلبي، القاهرة، 1345هـ/1927م. ص 42-49.

(22) ابن رجب، المصدر السابق، ص 32-33.

* كتاب القوت: محمد بن أبي الحسن علي بن عباس أبو طالب المكي، قوت
القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد، مطبعة
بولاق، القاهرة، 1310هـ.

(23) أبو طالب المكي، كتاب القوت، ج2، ص 122.

(24) Hiskett, M, Abdullah Ibn Mohammad, Tazyin al-Waraqat,
Ibadan, 1963, p. 23.

(25) Umar Al-Naqar, The Pilgrimage Tradition, pp. 82-86